الحركة الرومانسية في الأدب والحياة

بقلم ابراهيم شكر الله

كان ادب اليونان وروما القديمة – وهو الادب الذي عرف بالكلاسية – في تغليبه رونق الشكل ورعايته لمقاييس جمالية وقواعد نقدية عددة أشد شبهاً بالشعر العربي القديم . وكانت القصيدة البندارية Pindaric Ode تكاد تطابق القصيدة العربية – ليس في صياغتها والتزامها للاوزان المطردة المنتظمة ، والعروض الذي لا يختل ولا يتغير ، وايثار اللفظ الجزل والنزعة الخطابية فحسب ، بل كذلك في اغراضها؛ فعالجت – من بين ما عالجت – الهجاء كما عالجه الشعر العربي وعالجت المدح والنسيب والرثاء والوصف وغيره من الموضوعات التي اشتهر بها الشعر العربي .

وقد سيطر هذا المزاج الأدبي القديم على الجو الثقافي الاوروبي في القرن السابع عشر في فرنسا والثامن عشر في انجلترا ، وتسمى باسم الكلاسية الجديدة . وغلب على هذه الحركة التزام العقل والايمان العميق به وبمقدراته ، وضرورة اخضاع الخيال والعاطفة لأحكامه ونواهيه . كما آثر الشعراء اللفظ الجزل الرنان على الالفاظ الهامسة المتكسرة التي تتردد في منعطفات الروح ، والتزموا الايقاع الرتيب ، والروي الموحد ، وهو ما عرف عندهم باسم الـ Herioc Couplet اي الروي المزدوج . ذلك ان القافية كانت تتحد في بيتين هما اشبه بشطري البيت الواحد في القصيدة العربية ثم تتغير في البيتين التاليين وهكذا . مما جعل البيت وحدة القصيدة الكلاسية كما هو الامر في القصيدة العربية ، وجعل القصيدة في مجموعها نسيجاً غير متماسك من وحدات زخرفية صغيرة . وهو اسلوب اتسع – بالنظر لتكثيف المعنى الذي يستلزمه استقلال البيت – للموعظة والحكمة اللتين كانتا وظلتا من خصائص الشعر العربي الغالبة عليه .

في ظل هذا المزاج الادبي المترف الذي يغلب عليه ايثار العقل والاتزان واللفظ الرنان ، ويستوحي النماذج الكلاسية القديمة ، ويستنكر العاطفة الجياشة ، ظهر لفظ الرومانسية على استحياء ثم اخذ يرسل جذوراً وفروعاً حتى ملأ سماء الأدب الاوروبي في القرن التاسع عشر .

ويعود اللفظ في اشتقاقه واصله الى روما اللاتينية التي استخدمته للتعبير عن مزاج وحالة نفسية في الانشاء الادبي والفني يغلب عليها سيطرة الخيال والتلقائية اي عدم التعمل والاصطناع . وكان فيه مروق عن قواعد النقد الجمالي عند الرومان . ثم استخدم النقاد الارسطوطاليون والهوارسيون هذا اللفظ لتمييز الحكايات الشعبية التي ظلت قائمة في التراث الغربي حتى عصر النهضة ، وكانت لا تنطبق على المقاييس الأدبية الكلاسية . وهكذا نشأ اللفظ وهو لا يحده تعريف واضح متميز وان كان يغلب عليه طابع « الحساسية » اي تمثل الخبرات تمثلاً حسياً لا عقلياً .

فلما اخذ النقد الاوربي يتسرب الى انجلترا في منتصف القرن السابع عشر اخذ اللفظ يتردد على الالسن حاملاً معنى الاغراق في الخيال وايثار الغريب ، والعجاب والشبيه بالرؤيا . على ان اللفظ لم يستقر ولم يتخذ له معاني واضحة في الفكر النقدي الغربي الا في القرن الثامن عشر حينما اصبح يدل على مجموعة من العواطف والمشاعر لا يختص بها الشاعر الحديث وحده – كما كان الرأي قبل هذا – وانما لا يعدم ان يجد لها الانسان آثاراً في الادبين اليوناني والروماني القديمين وان كانت قد الجمتها القواعد النقدية الكلاسية الجاماً شديداً ومنعتها من الظهور والتألق . وهذه العناصر الاساسية في المزاج الرومانسي هي – علاوة على الخيال المحلق – العاطفة الجياشة والشعور العميق الغائر سواء أكان تدفقها في جدول الحماسة Enthusiasm او الكآبة Melancholy وهما الحالتان النفسيتان اللتان آثرتهما الرومانسية وجعلتهما مادة الادب وبطانته العاطفية .

وقد حاول المؤلفون والمفكرون في نهاية القرن الثامن عشر ان يقيموا اللفظ على دعائم علمية باعتباره يميز الحضارة المسيحية الحديثة في انتفاضتها على الوثنية . فاصبحت الرومانسية تطلق على المدرسة الفلسفية الالمانية التي تزعمها فختة Fechte وشيلنج . بل لقد شملت جماعة كبيرة من المفكرين عملوا على تطبيقها في جميع ميادين الثقافة والفن والفكر .

وقد كان نمو الحركة المضادة للكلاسية من الاتجاه الذي ظهر في العصور الوسطى وتمثل في فن وادب شعبي خالص لم يمازجه شيء من الادب الخاص ، الى حركة شاملة فيها انتصار ودعوة للجديد – كان هذا النمو نتيجة للثورات الروحية التي قامت في القرنين السادس عشر والسابع عشر . فان المصلحين البروتستنتين : لوثر – الذي قال ان الانسان انما يتبرر امام الله بالايمان لا بالعمل الصالح (١) ، وكالفن الذي قال بان الله قد سبق فاختار امته منذ الازل الاول وهي العقيدة المعروفة في المسيحية باسم سبق الاختيار (٢) – هذان مهدا السبيل للعقيدة الرومانسية في « الالهام » التي كانت تسمى في صورها المتطرفة « الجذوة الابليسية » . وتحول « التبرر بالنعمة » في ميدان الجماليات الى مفهوم العبقرية ، واصبحت المقاييس الكلاسية مرادفة للأعمال الصالحة ، فهي تعجز عن ابداع عمل فني واحد كما تعجز الاعمال الصالحة عن انقاذ نفس انسانية واحدة .

وكانت الكشوف العلمية في العصر التالي بانكارها الفلك القديم الذي كان يجعل الارض مركز الكون والكوسموجنية المسيحية التي كانت ترسم للافلاك صورة منسقة مترابطة الاجزاء مركزها الارض فالانسان – كان رفض هذا ، والكشف عن كون غير متناه ، باعثاً على الايمان باللانهائي الفني الذي ينطلق متحطياً حدود القواعد البلاغية ، وبفكرة التطور والثورة المستمرة في الكون والعقل . وقد اظهر درايدن – الشاعر والمسرحي الانجليزي – منذ عام ١٦٨٨ ادراكاً للعلاقة القائمة بين المدركات الفلكية والذوق الادبي حينما قارن بين استخدام « المحاور الثانوية » او « الموضوعات العارضة » في المسرحية الانجليزية في مناقضتها للمسرحية الفرنسية الكلاسية التي لم تكن تدور على غير محور رئيسي واحد – وبين حركات الافلاك المتعددة التي حلت محل الحركة الواحدة المنتظمة في الفلك القديم .

ثم كان في الثورة السياسية الانجليزية في القرن السابع عشر في تقديسها لفكرة حق المولد الثابت لكل فرد في الحرية ما زود الثورة على السلطة

---

(١) « متبررين مجاناً بنعمته » رو ٣ : ٢٤ .

(٢) « فان كان بالنعمة فليس بعد بالاعمال » رو ١١ : ٦ .

عموماً سواء في السياسة او الادب حافزاً جديداً قوياً ، يشبه ما يعـــترم في صدور شباب الكتاب اليوم في ثورتهم على ادب الجيل الماضي .

هذه الاسباب، وما أثارته من اصداء، دعمت وعمقت الاتجاه نحو الرومانسية بينما حطمت حركة الاصلاح البروتستنتي ونظم التعليم الجديدة قبضة النماذج الشعرية التقليدية عن طريق اشاعة نشر التوراة الذي يتتبع ايقاعاً خاصاً . بل كان من شأن الاصلاح الكاثوليكي المضاد ان انتج اثراً مشابهاً بدعوته الى اخذ موضوعات الفن من المسيحية اي من مشاعر وحقائق حديثة ، وذلك بدلاً من البحث عنهـــا في الاساطير الوثنية كما كان شأن الكلاسيين ، او السعي – وكانت هذه دعوة اليسوعيين – الى توجيه الشعر والفن في الجداول المأمونة للزخرفة والتزاويق . فعملوا بهذا – على نحو غـــير واع – على استثارة الانطلاقة الجامحة للخيال .

ثم كان انتشار الطباعة واثره في استبدال اسلوب البلاغة الخطابية القديم الذي كان يجعل عنايته الاولى بالشكل الى تصوير اكثر واقعية ، وفي نفس الوقت اغزر حساسية ، للحياة نفسها. فان الجمهور الجديد من القراء كان ينتمي الى الطبقة الوسطى التي كانت بعيدة عن ثقافة الخاصة ، كما كان يتألف في معظمه من النساء . وهذه الطبقة القارئة الجديدة تحولت الى الفن والادب باحثة فيه عن انعكاس لكفاحها اليومي ومصالحها الاقتصادية والعاطفية .

فاستبدلت اللاتينية العالمية ، في الوسيلة الادبية ، بلغة الكلام مما نتج عنه – من بعض ما نتج – ان دخل التراث المحلي واللون المحلي كما دخلت اللهجـــة المحلية – في نسيج الادب . فلما تـــوج الانتاج الادبي المحلي في البلاد – التي استطاعت عـــلى نحو يزيد ويقل نجاحاً ان تقاوم التراث الكلاسي – بالآثار الرائعة لأمثال شكسبير وكالديرون وسرفنتيز ، لم يعد ما يرد القالب الكلاسي الجديد عن الانهيار جملة .

وفي الوقت نفسه كانت الدوائر المثقفة تزداد معرفة باللغة اليونانية والادب اليوناني ، وتتبين فروقاً جوهرية بينة بينه وبين التراث الروماني وتكشف عن عناصر رومانسية في الشعر اليوناني القديم ، فأبرزت صفات الطبيعية والبدائية في شعر هومر، ووضعته في مرتبة تعلو كثيراً على اكتمال الصناعة في شعر فرجيل. كما جلا الرومانسيون جوهر العبقرية الانسانية في التراجيديا ورفعت هـــذه فوق بلاغة الادب الخطابي. ثم ما كان من كتابات السياح الذين طوفوا باليونان في القرن السابع عشر حتى زمن شاتوبريان ولورد الجن وتسرب الأساليب العتيقة والشرقية والبدائية .

فأخذ الغرب يتحرر من المقاييس التقليدية لاحكام الصنعة والاجادة من مطابقة وموازنة وتناسق في الابعاد، وتحول الفنانون في رسم المناظر الطبيعية من المحاكاة الدقيقة الى تغليب عنصر اللون ، وفي البناء الى عنصر الابـــداع الشخصي ، وفي النحت الى التعبير الفردي الغريب . فنما فن الباروك كما نمت استخدامات الظل عند ليوناردو دافنشي واتباعه وضحى الرسامون الهولنديون والفينسيون الشكل في سبيـــل اللون . وانتقلت حركة عبادة الطبيعة الى الاستغراق في المناظر الطبيعية وفي رسمها ، والى فن الحدائق الانجليزي الذي كان يؤثر وحشة الطبيعة على التشذيب الاندلسي الرقيق . كما تحمس الناس لفن العمارة القوطي وتحررت الموسيقى من التقاليد الكنسية ومن الخضوع لمطالب الارستوقراطية فتوجه باخ في الموسيقى يناشد الحماسة الجمالية والدينية مباشرة، وادخل موزار المشاكل القائمـــة الجوهرية في الاوبرا كما اخذ الموسيقون والشعراء على السواء يستكشفون الادب الشعبي ويأخذون منه .

وفي الفلسفة نهج لوك وبركلي طرقاً جديدة خرجت بها من دروب الديكارتية العقلية التي رأت برهان الوجود في الفكر . ثم اتى خلفاؤهمـــا فغاصوا في اعماق تزداد غوراً يستكشفون الحياة الخفية للطبيعة والروح . فقامت تيارات تأملية في اللامعقول وفي الخارق وفي الصوفية وفي السحر والكهانة وعلم الغيب. وتحول الفلاسفة ورجـــال الادب في اعداد متزايدة يستلهمون الوحي من منهج سبنوزا القائل بالحلولية وقد بدا لأكثرهم بينة على المدى اللانهائي الذي يستطيع ان يبلغه الاحساس الملهم . وان كان هذا التأمـــل قد انتهى الى وجهات نظر اختلفت من التفاؤل الحماسي للفوستية القيمة الى التشاؤمية الرومانسية المترفة كما في شوبنهور .

وفي الفلسفة ايضـــاً جاءت تأملات ليبنتز في اللانهائي فتفجرت لها الروح الدينية بحركات تتأجج بالحماسة والوجدانيات الدافقة مثل الميتودية في انجلترا والبيتية في المانيا . ثم قام هامان وسويد نبروج يتمثلان اجتماع الجـــذوة الصوفية والتأمل النظري في نفس واحد .

وفي مجال اقل من هذا خطراً نرى تلك الخصومة واللجاج العنيف الذي اثارته فرنسا في اوربا وفي المانيا خاصة نتيجة لزعامتها السياسية على القـــارة الاوربية ينعكسان على صفحة الادب في حملات على النفوذ الثقافي الفرنسي ، وعلى الكلاسية الجديدة التي كانت فرنسية في جوهرها وطابعها ، وعلى الحركة العقلية التي كانت باريس وفرساي امنع معاقلها .

فلما سارت جحافل فردريك بالنصر وصعدت الدولة البروسية مدارج العزة والمنعة تفرجت الدعوة التيوتينية وتحولت الى حركة تناصب الكلاسية الفرنسية أمر العداء . وقام ليسنج وهو من اشهر دعاة البروسية يمجد العبقرية المنطلقة التي تتمثل في المسرح الانجليزي ويقيمه مراتب عدة فوق الدراما الكلاسية الفرنسية .

وقد جاءت اول وثيقة منبئة بأن المزاج ووجهة النظر الجديدة قد بلغتا النضج واضحتا حركة محسة لنفسها ولخطرها في كتاب لاوكون Laokoon للنسج الذي ظهر عام ١٧٦٦ . واشتد فيه بالقول انه رغم تسليمه بصواب الموقف الكلاسي الجديد من الفنون التصويرية فان الملحمة والتراجيديا اليونانية كانت – شأنها في هذا شأن كل الشعر الجيد – انما تعبر تعبيراً حراً ابداعياً عن العاطفة الجياشة والحركة العنيفة . فيكون ليسنج بهذا قد استبق ما رآه نيتشه من ثنائية في العبقرية اليونانية ، عنصر ابوللي يمثل الخلود والسكون والجمال وعنصر آخر ديونيسي يمثل النشوة وحركة الروح الفائرة .

ورغم ان ليسنج هـــو الذي ارسى بلا جدال دعامات البناء الاسطيقي للرومانسية الادبية فان الداعية الحقيقي لها هو جان جاك روسو ، السويسري المولد الكالفني المذهب .

لقد التأمت في نفس روسو الجذوة الحماسية والنزعة الفردية التي حملها اليه التراث البروتستنتي مع وجدان متأجج بجلال الطبيعة ملأ اعطافه اثناء تطوافه بسويسرا – واختلط بانسجة فكرية مما كان يتردد في ذلك العصر من كلام عن عبادة الطبيعة ودفاع عن الخيال الجامح واستخدام الغريب في الشعر . فخرج روسو من جميع هذا بنظرية هي – على اختلاطها – مركب رومانسي خالص يجمع بين الفكر المتشنج، والانطلاقة الغنائية الصداحة . كما كانت الى حد بعيد انعكاساً لنفسه المبدعة المضطربة ، الجامعة لشتات الاضداد ، مما جعله الرمز الأول للحياة الرومانسية . وقد كانت فكرة روسو الاولى ان الطبيعة خيرة وان الفضيلة قائمة اصلاً في مكامن القلب البشري . وكان على يقـــين ثابت من ان العصر الذهبي الذي طالما تغنى به الشعراء ، وحلم به الرساميون، واضطرب الفلاسفة في شأنه ليس خيالاً شعرياً بل هو « حالة من حالات الطبيعة » سقط عنها الانسان الى ما فيه اليوم من تعاسة وموجدة وخوف . وقد عزا روسو الخوف والشر الى ما اصاب « العقد الاجتماعي » من اساءة

في التفسير وفي التطبيق . وقال بأن السعادة والخلاص لا يكونان الا بالعودة الى الحرية والطهارة الاوليين؟

وقد مزج في دعوته هذه بين عدة اخلاط فكرية وادبية منها النزعة الاركدية والباستورالية في الادب الكلاسي والايطالي وهي دعوة تشبه الى حد كبير ما نراه في شعرنا العربي المعاصر من تمجيد لحياة البادية وللرعاة واعتقاد بأن هذه الحياة في بساطتها تجمع بين الجمال والصفاء والخلق المكين . ومنها كذلك تأثر روسو بالعنصر الخلقي الديني في موعظة المسيح على الجبل وهي التي اجمل فيها المسيح تعاليمه السامية من رضاء بالمذلة واستعذاب للهانة وقبول لحياة التشرد والمسغبة.. ومنها كذلك تأثر روسو بالدعوة التي قامت في عصره لتمجيد البدائية وتسمية الانسان البدائي « بالوحش النبيل » .

من هذه المؤثرات وغيرها تألفت مدركات روسو وقد ألقاها بذاراً على أرض مرياة لها لم تلبث الا قليلاً حتى تفتحت عن انبثاقات رومانسية اثيلة في كل جانب وكل ميدان .

ولقد جاء اول مظهر مشترك للحركة الرومانسية في المانيا في مطلع سنة ١٧٧٠ حينما قام جماعة من الشباب الذين استهوتهم دعوة عبادة العبقرية للتجمع حول شعار واحد اسمه Sturm und Drang اي « العاصفة والحافز » وكانت اوضح مقومات هذه الدعوة الجديدة سينوزية مبسطة ، وايمان بالالهام ، ونزعات تصوفية ، ثم اعتناق لانسانية هردر التي مجد فيها الابتكار والقوة ايضاً ، ولفكرة الطبيعة عند شكسبير ، وللتعبيرية القديمة التي دعا لها السنج ، وللفكر الديني الحر ، وبعد هذا كراهية شديدة لما اطلقوا عليه اسم Franzoschen اي الفرنسي استصغاراً لشأن الفرنسي الذي وسم بالتحذلق وجعل حاملاً للواء Vernünftelei اي سوفسطائية العقل العقيمة . كما تغنوا بالطفولة البريئة التي بشر بها روسو وغيره من فلاسفة التربية .

وقد التأمت هذه المؤثرات فخرجت ادباً وفناً يمجد الطاقة البشرية الطافحة والتلقائية الدافقة حيثما كانت. فتغنوا بالجريمة في قصة شيلر Die Raüber اي اللص ودعوا الى تعدد الزوجات وبشروا بالجنون الاشراقي الذي تمثل فيما بعد في هيلدرلين Holderlin وفي هلاك النفس هلاكاً مجيداً اي الانتحار العظيم.

ورغم ان احزان فرتر التي كتبها جيته في شبابه والتي يزهق فيها البطل روحه احتجاجاً على التعسف الاجتماعي والسيطرة الاجتماعية على الحب هي من اصدق النماذج انطباقاً على دعوة الشتورم والدرانج ، فان العزلة الاولمبية التي توخاها جيته حملته يرتد هو وشيلر الى كلاسية معتدلة . فصاغ جيته في فيلهلم مايستر مثلاً اعلى للتعليم الاجتماعي تنعدم بينه وبين التعبيرية الجامحة للشتورم والدرانج وشائج الصلة . وذلك رغم ان تلك كانت الفترة التي كست فيها الرومانسية حاسم مواقفها على أيدي شليجيل وتيك ونوفالس وشليرماخر وشيلنج وغيرهم . Schlegel, Tieck, Novalis, Schleirmacker; Schelling .

وان الاشكال المختلفة التي لبستها الرومانسية في الحقب القليلة التالية على ذلك التاريخ انما تعزى الى تعدد الافكار والاتجاهات التي دخلت على نسيج الايديولوجية الرومانسية ، فنرى جنباً الى جنب وفي ازدواج عجيب دعوة نوفالس الى رمزية صوفية في الشعر ودعوة اوهلاند Uhland الى الاسلوب المنبسط الساذج الذي يتمثل في القصيدة القصصية الوسيطة المعروفة باسم البالاد Ballad ثم دعاع روكورت Ruckert عن التجارب العروضية المتداخلة . وفي ضوء هذه المتناقضات التي كانت بعض التربة التي نبتت فيها الرومانسية لا يستغرب ما نراه في ثمارها من تناقض كالذي نراه مثلاً بين رائدي الرومانسية الانجليزية كولردج ووردزورث. فبينما الاول يدعو الى دياجة شعرية رشيقة ذات رونق وبهاء ، نرى وردزورث يتتبع منابع الدياجة الشعرية الحقة في ألفاظ ولغة الفلاحين والرعاة الذين لا يملكون ناصية الافصاح البين وانما تخرج الفاظهم وقد اختلطت ببعض وجدانهم . وقد انعكست هذه الصفة المتغيرة الرومانسية في الموسيقى والرسم فاختلف المزاج الرومانسي من الليدر العاطفي الحزين عند شوبرت ، الى السوناتات البرومثية المتأججة عند بيتهوفن ، الى المحاوير الفخمة العديدة الاصداء عند فاجنر ، الى الفضية العرمة عند ديلاكروا ، الى الموازنة الهادئة عند انجريس ، الى البدائية المتكلفة الباهتة عندما قبل الرفائليين. ورغم هذا الوجه المتعدد للرومانسية في المجال الاسطيقي فمن الممكن استنتاج الصفة العامة التي تكمن وراء جميع هذا وهي الاحساس بالتوتر والدفع ومحافز روحي نحو الخلق والابداع المتجدد . وان كان الغالب ان يتم البحث عن الجديد في دروب تمتد منعطفاتها في الماضي .

وعنصر التناقض هذا الذي نجده في الفلسفة والاسطيقا الرومانسية اشد ظهوراً واقوى في مجال النظرية السياسية والاجتماعية الرومانسية ، فلم توجد خلافات واسعة بين المذاهب الاجتماعية والسياسية الرومانسية وبعضها فحسب بل كان كثيراً ما يعتنق المفكر الواحد في تطوره العقلي وجهات نظر متباينة . ففي المانيا وبعد هذا في دول اوربا المختلفة اكتسبت الرومانسية مفكرين يمثلون الظلال العديدة للفكر السياسي من انسانيين مثل شيللي وفخته اللذين تأسيا مثل تأسي روسو على مصير الانسان العادي التعس الذي « ولد حراً ولكنه محاط بالاصفاد في كل مكان » الى جماليين اصحاب نزعات اولمبية انعزالية مثل تيك وفردريك شليجيل اللذين انكرا باسم الفن المقدس جميع المسؤوليات والتبعات المدنية والسياسية الى اقليميين نزقين مثل كارل لودفج فون هالر الذي دعا الى الهروب من المركزية البيروقراطية للدولة الاستبدادية الحديثة بالارتداد الى

محروم :

— يقدّم —

وحي الحرمان

مجموعة شعرية تعود بالجزيرة العربية

الى مكانتها العالية في دنيا الشعر

يرصد ريعه لجمعية اهل القلم

الاقتصاد الاقطاعي والنظم المحلية الابوية البائدة، الى دعاة ورواد فكرة الدولة الجمالية مثل آدم مولار Adam Müller وفردريك فون جنتز Friecdrich von Gentz وفون ارنيم Von Arnim وشليجل Schlegel ، الى انانيين عالميين ابرزوا عنصر الدعوة الى الوحدة العالمية في منهج هردر الفكري، الى وطنيين رومانسيين تنادوا بالنهوض لحرب الطغيان النابليوني ، الى بروتستنت متدينين مثل شيعة البتية في شرق بروسيا ، الى كاثوليك عدوانيين مثل جوريز Gorres وبادير Baader وبرنتانو Brentano، الى تلك الجماعات التي ظهرت في آخر مراحل الرومانسية الالمانية في هيدلبرج وبرلين وفينا وكانت تنادي – في عبارات هيجيلية – بأن عملية التغير الاجتماعي قد بلغت حدها اخيراً وانها توقفت عن السير .

لذلك فمن مجانبة الصواب القول بأن الرومانسية عندما تدخل الفكر السياسي تثير غائلة القوميات الجامحة وتنبت النظم الجماعية المستبدة كالفاشية والنازية، بما تحيط به فكرة الدولة من تمجيد والوطن من تأليه تهون في سبيل رفعتها ومجدهما حياة الفرد وحريته وسعادته . فالواقع ان الرومانسية كثيراً ما عبرت عن نفسها في صور مغالية في الفردية بل الفوضوية احياناً . فقامت الجودوينية الفنائية عند شيللي جنباً الى جنب مع الفوضوية المريرة لشتيرنر Stirner وباكونين Bakunin . ولم تكد الوهجة الاولى للسانت السيمونية الاشتراكية تخبو في فرنسا حتى قام فلوبير الرومانسي يدعو لشرعة اللاخلقية واللامسؤولية المدنية للفنان في صورة اشد مبالغة من كلما دعا له الرومانسيون الاولون في المانيا . والواقع ان فلوبير بما جعله من خطر للذاتية وحقوق السيادة التي للعبقرية المفردة كان عاملاً فعالاً في تدمير مبدأ السلطة الذي كان اهم دعائم نظرية التضامن الاجتماعي في اي صورة من صوره .

ولا جدال في ان اشد انواع الهجمات التي تعرضت لها الرومانسية انما جاءت نتيجة لتضخم مثل هذه العناصر الفوضوية والفردية . فان الكتاب الفرنسيين الذين لم يلبثوا ان تبينوا في استشراء الحركة الرومانسية انتصاراً للغيبيات الالمانية على الفكر الوضاح المتألق الذي ظل دائماً جوهر العبقرية الفرنسية – هؤلاء الكتاب من امثال سيلير Seillier ورينو Reynaud ودعاة الاكسيون فرانسيز ناصبوا الرومانسية اشد العداء وامره ورأوا فيها قوة انحلال اشبه بغزوات البرابرة . وعرضوا تاريخ الرومانسية على انه تتابع للدعوات الفوضوية واللاعقلية من ده في de Vigny وعبادته الحزينة للعزلة المستشهدة ، الى استغراق البارناسيين في كل ما هو غريب وصارخ اللون ، الى مقاربة بودلير وادجار آلن بو ، واخيراً الاختفاء الكامل للنسق المنطقي في الكتابة الفنية عند المنحلين والرمزيين . بل لقد عرّضوا بالرومانسيين انفسهم وبما غلب على خلقهم من شيوع الانحلال والسلوك المنحرف، واشاروا الى جيرار دي نرفال ورامبو . وقد حدثت مثل هذه الردة العنيفة على الرومانسية في اميركا في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تأثراً بحملات النقد الفرنسي واستجابة لتزمت الطبقة الوسطى الاميريكية .

على ان هذا كلام لا يمكن قبوله . فليست الرومانسية دعوة للانحلال ولا هي ما يقوله سيلير من انها فكرة الفردية المنحلة . بل هي وعي الانسان الحديث بما يعترم في جنباته من وجدان هادر بالتناقض القائم في حسه وفي عقله بين اللانهائي والمتناهي ، بين الحركة والسكون ، وبين الخلق والاستقرار، والحياة والموت . ومن ثم كانت هذه الكثرة المقاقة المعذبة في صور الرومانسية الظاهرة واختلافها من فردية فوضوية الى جماعية قطيعية ومن تكلف للخشونة البدوية الى التماس ذرى الجماليات ، ومن العبادة المستذلة الى التدمير العارم العنيف . على ان الطاقة الرومانسية البنائية تقف بين هذه الاضداد جميعاً – جذوة العقل الحديث المدرك لذاته ولهدفه – تجتلي جميع هذه الآفاق وترقي جميع هذه الذرى مستكشفة منقبة باحثة عن الذي لا تدريه ادراكاً عقلياً واضحاً وإن كانت تحسه احساساً يرتج له الكون كله .

ان الانتصارات الجوهرية للرومانسية الاوربية لا تزال خفاقة الاعلام الاعلام منصوبة العمد . ففي العلوم الطبيعية والفلسفة تقوم فكرة التطور . وفي الحياة الاجتماعية ارادة التقدم ، وفي ميدان الجماليات اشرق الوعي الرومانسي اشراقته الوهاجة فجلى جوهر الشعر والفن، لا باعتبارهما زخارف وتزاويق خارجية – كما كانتا – بل باعتبارهما ملكات روحية اثيلة تشتبك جذورها بجذور الحياة نفسها، وتتعانق معها في المغائر الظليله للروح الانسانية .

ان العالم الحديث في بحثه عن مزاوجة بين اللانهائي والمتناهي في الفيزيقا الكوكبية وبين الحركة والمادة في الفيزيقا ، وبين الخلود والموت في الدين وبين الغريزة او اللاوعي والكبت في علم النفس، وبين الفردية والاشتراكية وبين الحرية والتنظيم في السياسة، لا محيص له من الوقوف على ارض رومانسية تستطيع ان تنمو في تربتها الأضداد متجاورة ؛ وتلتقي اطراف المتناقضات على حقيقة جدلية الهية تتخطى وتسمو على جميع الحقائق الواضحة المبتذله للعقل الصاحي .

القاهرة — **ابراهيم شكر الله**

صدر هذا الشهر عن

دَارالعِلم للمَلايين

بَيروت

١ .	**اشياء صغيرة** (قصص)	للآنسة سميرة عزام ١٠٠
٢ .	**وقود للنار والنور**	للدكتور جورج حنا ١٠٠
٣ .	**المبادىء الشرعية في الحجر والنفقات والمواريث والوصية في المذهب الحنفي والتشريع اللبناني**	للدكتور صبحي المحصاني ٦٠٠
٤ .	**الخالدون العرب**	للاستاذ قدري حافظ طوقان ٢٠٠

تطلب من جميع المكتبات في البلاد العربية